تعامُل المسلمين مع اليهود فى ضوء آيات القرآن الكريم

محمد سعد زغلول سالم

الثلاثاء ١٤ نوفمبر ٢٠٢٣

كانَ الظَّن فى بدْء تدبُّر القرآن الكريم أنَّ وَصْفَ اليهود بالمغضوب عليهم إنما كان لمَيْلِهِم الفِطْرى إلى الضلال والشرك بالله مثلما فعلوا عندما صَنعوا العجلَ من الذهب الذى سَرقوه من المصريين وبدأوا فى عبادته بمجرد أنْ فارقهُم موسى عليه السلام لملاقاة الله .. أمَّا الآن فإنَّ جانباً آخر من سبب هذا الوصف لهم يتجَّلى فى ما يفعله البعضُ منهم بالفلسطينيين طوالَ عقود مِنْ جرائِم لا يرتكبها مؤمنٌ بالله .. بل خَلْق من شُرار مخلوقاتِه مغضوبٌ عليهم ومحرومونَ من مغفرته ومطرودونَ من رحمتِه .. يفعلون ما يفعلونه ليكونَ حجةً علي من يرتكِبُها منهم والجواب على سؤالهم وهم يتقَّلون فى قاع الجحيم عَمَّا أوْدَى بهم إلى هذا المصير بعدما كانوا شعبَ الله الذى فضلهم على العالمين.

وقد شكلت مواقفُ الكثيرين من اليهود الذين كانوا يدافعون عن الفلسطينيين فى فلسطين المحتلة وينادون بحقهم فى الحرية والعيش فى أمنٍ وسلام فى فلسطين جنباً إلى جنب مع اليهود بأكثر مما كان يدافع به مسلمون عنهم دافِعاً للتفكير والتدبر فى معنى ومغزى الآية الكريمة (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) التى تقرر شدة عداوة اليهود والذين أشركوا ـ وهم الشيعة فى رأيى ـ للمؤمنين. فمنذ عقودٍ عديدة ومنذ إحتلال فلسطين كانت توجد على الدوام طوائف من اليهود تعارض قيام دولة إسرائيل وتعارض الممارسات العنصرية والهمجية والإجرامية التى يرتكبها الكيان الصهيونى ضد الفلسطينيين بل وتدافع عنهم ضد جرائم هذا الكيان. ومنذ إندلاع حرب السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ بين مجاهدى المقاومة الإسلامية فى فلسطين وجيش الإحتلال الإسرائيلى بدأت فى بلدانٍ عديدة مظاهرات لكثيرين من اليهود الذين شهدناهم وسمعناهم وهم يدافعون عن الفلسطينيين ويتظاهرون فى عقر دار الكونجرس الأمريكى مطالبين بوقف العدوان الإجرامى الوحشى للكيان الصهيونى على أهل (غزة) ويندددون بجرائم الكيان الصهيونى فى إسرائيل بما لم يجرؤ على فعلِه أو حتى قوْلِه حكام الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية الذين لم يكتفوا بعار الخذلان والجُبْن والخوف من مساعدة إخوتهم فى (غزة) الذين يُقتلون ويُبادون ويُحرمون من الماء والغذاء والدواء أمام أعينهم بغير أن يجرؤوا على مد يد العَوْن لهم .. بل أن بعضهم قد أَوْغَلَ فى خيانة دينه ووطنه وشعبه وأخذ موقف الداعم بل والمناصر للكيان الصهيونى ضد إخوته فى الدين وفى العروبة .. تصديقاً لقوله تعالى فى الآية الكريمة (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) التى تكشف عن أسباب مناصرة حكام وشعوب بعض البلدان العربية لهذا الكيان الإجرامى ضد إخوتهم فى الدين وفى العروبة وفى الإنسانية.

وقد شكلت المواقف المُناصِرَة للفلسطينيين من قِبَل جماعات عديدة من اليهود دافِعاً لتبيين ما قد يبدو من تناقض بين هذه المواقف ومعنى ومغزى هذه الآية الكريمة (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا). وفى حقيقة الأمر فإن تدبر الجوانب العديدة فى هذا الشأن يكشف عن أنه ما مِنْ تناقض بين هذين الأمْرَيْن. فتقرير عداوة اليهود للمؤمنين هو تبيين لحقيقة مشاعرهم تجاه المسلمين ولكنه لا يرتب أية ردود أفعال عدائية ضدهم أو أىَّ ظلمٍ لهم أو بَغْى أو إعتداء عليهم أو أية أفعال أخرى لأنها محكومة أولاً وأخيراً بالآية الكريمة (لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). فمُسالمة اليهود المسالمين مثلهم فى ذلك مثل المَسيحيين المسالمين ومثل غير المسلمين المُسالمين أيا ما كانت عقائدهم الذين لم يقاتلوا المسلمين فى دينهِم ولم يستولوا على أرضهم أو ديارهم أو ممتلكاتهم ولم يظلموهم ببَغْيٍ أو ظلمٍ أو عدوان هى القاعدة التى إسْتَّنها الله للمسلمين فى التعامل مع غير المسلمين بل إنه أباحَ لهم البرَّ بهم وهو أعلى درجة من درجات الإحسان وكذلك أمرَهم بالعدل معهم فى كُلِّ شؤون الحياة المشتركة بينهم لأنهم فى مبدأ الأمر ونهايته خلقٌ من مخلوقاته لا يحل الإعتداء عليهم أو ظلمهم إتباعاً لأوامر الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) وهى آية عامة جامعة لقواعد التعامل فى ما بين المسلمين بعضهم البعض وكذا فى تعاملهم مع غير المسلمين بغير تفرقة أو تمييز والتى تقتصر فى جوانبها الدينية على الدعوة بالحُسْنى إلى الإسلام والتوحيد بغير إكراه أو تعنيف أو توبيخ مثلما تقضى به الآية الكريمة (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) وليس أكثرَ من ذلك.

وقد يفيدُ فى صَدَدْ البرهَنة على عدم وجود أى تناقض أو تعارُض بين تقرير عداوة اليهود للمؤمنين ووجود يهودٍ مُسالمين يجوز العيش معهم والبر بهم والعدل معهم النظر فى تاريخُ اليهود الذين عاشوا لقرونٍ طويلة بين المسلمين فى بلاد المسلمين فى أمْنٍ وسلام بغير أن يتعرضوا لظلمٍ أو بَغْيٍ أو عدوان. وهذا العدلُ معهم أمرٌ تقضى به شرائع الإسلام ويعود تاريخُه إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى أمرَ بمعاش يُصْرَف من بيت مال المسلمين لبعض اليهود الذين لم يعودوا قادرين على العمل والكسب. كما يفيد تدليلاً على ذلك إيرادُ آيات الأعراب التى تقرر أنهم أشد كفراً ونفاقاً وأبعد ما يكونون عن طاعة الله والرسول (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) مع بقية الآيات التى تقرر أنه يوجد مِنْ هؤلاء الأعراب مَنْ هُم على خلاف ونقيض ذلك مثلما جاء بالآية الكريمة (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). فالقياس هنا بين شدة عداوة اليهود للمؤمنين ووجود البعض منهم ممن لا يتعدى علي المؤمنين بظلم أو بغى أو عدوان وبين كفر ونفاق الأعراب ووجود البعض منهم سيدخلهم الله فى رحمته ومغفرته يُبَرْهِن على أنه ليس ثمة تناقض بين معانى ومضامين هذه الآيات كما يظن أو يتوهم الكثيرون من المسلمين الذين يحْسَبون أنَّ تقرير شدة عداوة اليهود لهم كافى للإعتداء عليهم وظلمهم أو البغْى عليهم وهو أمرٌ لا يتوافق مع أوامر الله فى تعامل المسلمين مع بقية خَلْقِه من غير المسلمين المسالمين بالعدل والإحسان وعدم البغْى ويتعارض مع القاعدة الشرعية العامة الجامعة التى تقرر أنه (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) و (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ).

إنَّ الجرائم التى يرتكبها مجرمو الكيان الصهيونى ضد الفلسطينيين فى (غزة) وفى باقى فلسطين المحتلة منذ بدء حرب السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ والتى تخطت حدودَ الإبادة والإستئصال لكل من تطالُهُ أسلحتهم من أحياء هى تكرارٌ شيطانى لجرائم مولِعَة فى الوحشية والهمجية كان الظن أنها صفحاتٌ سوداء قد إنقضت من تاريخ البشرية وطوتها مسيرة الحضارة الإنسانية وماعادَ من مكانٍ لها أو عَهْدٍ للبشر بها فى العصر الحديث. فمازال مجرمو الكيان الصهيونى الهمجى الوحشى يرتكبون هذه الجرائم ويعيدون إرتكابها ضد الفلسطينيين كُلَّ حينٍ وآخر مثلما كانوا يرتكبونها منذ آلاف السنين ضد أعدائهم فى حروبهم القديمة ومثلما سَطروا تفاصيلها المُرَّوعَة فى أسفارهم الدينية التى يقدسونها ويعتقدون بما تحويه بل ويتفاخرون بها وهم غافلون عن أنهم بما يفعلونه ويرتكبونه من جرائم وأفعال إنما يثبتون ويُبَرْهنون على عَدْلَ اللهِ فى غضبه عليهم ولعنتهِم وطردهم من مغفرته وحرمانهم من رحمته وتوَّعُدِهِم بعذابٍ مُضاَعف أليم ينتظرهم حين يحين الحساب .. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).